الفصل الثانى

المستوى الصوابى

(أو مقياس الصواب والخطأ)

نحن فى عالم يزداد فيه الاتصال بين الناس، وتنمو وسائله، حتى لم يعد فى طوق أمة من الأمم، ولا فرد من الأفراد، أن يلزم بيته ويعبد ربه. فمصير كل أمة مرتبط بمصير غيرها من الأمم التى تصادقها أو تعاديها، ويرتبط كذلك مصير كل فرد فى المجتمع بمصير بقية أفراد المجتمع الذى يعيش فيه، ويتزايد ارتباط مصيره هذا بمصير الإنسانية فى عمومها فى الوقت الحاضر. والذى ساعد على ذلك هو التطور فى وسائل الاتصال المادى والفكرى بين أطراف المعمورة، كوسائل المواصلات البرية والبحرية والجوية، ووسائل الاتصال البريدى والبرقى واللاسلكى والإليكترونى، وتحتل الصحافة والإذاعة من بين هذه الوسائل مكانا خاصا.

ولم تعد المسألة شركة فى المصائر فحسب، بل تعدتها إلى شركة فى الأذواق العامة، وفى المقاييس الاجتماعية والخلقية والعلمية، وقد ازداد تشابه الناس والأمم فى هذه النواحى، حتى أصبحنا نتكلم عن الحضارة الحديثة، بدل أن كنا نتكلم عن الحضارة الأوربية. وأصبح وصف هذه الحضارة بأنها حديثة يدل بالتضمن على أنها لم تعد حضارة أوربية أو أمريكية فحسب وإنما أصبحت حضارة عالمية يضيف كل شعب إلى مقوماتها بحسب ظروفه ومقدرته. وقد سمعنا الرئيس الأمريكى أيزنهاور يقول: إن مساهمة أية أمة من الأمم فى حضارة الجنس البشرى لا تقاس بعدد الفرق العسكرية التى يمكن أن تضعها هذه الأمة فى حقل المعركة. ومع قطع النظر عن الدافع الذى دفع أيزنهاور إلى هذا الكلام نجد ما قاله يدل على أن الحضارة أصبحت حضارة الجنس البشرى، وعلى أن أمريكا التى تقف متهمة فى الجلسة الطارئة للجمعية العامة بالاعتداء على لبنان، والتى اشتهرت بسياسة حافة الهاوية، لا تستطيع الخروج ولو فى الظاهر على المستويات السلوكية العالمية التى تشترك فيها أمم العالم جميعا. تلك هى

المستويات التى تهدف إلى المحافظة على الحضارة، وإلى جعل مصالح النوع الإنسانى فوق المصالح الخاصة لأى شعب أو حكومة، ثم إلى الغيره الأصيلة أو المصطنعة على السلام العالمى.

ويزداد تشابه الشعوب فى طريقة المعيشة، وطريقة التزّين، وارتداء الملابس، وإلى توحيد النظرة من الناحية الجمالية البحتة إلى أى موضوع من الموضوعات. فالفلم، أو المسرحية، أو المنظر، أو الصورة، أو الوجه، أو الفكرة التى تثير الدوافع الاستمتاعية المبنية على تقدير الجمال عندنا فى العالم العربى، ستثير نفس الدوافع فى كل مكان آخر من هذا العالم، مع اختلاف فى الدرجة أحيانا، ولكنها على أى حال إثارة تدل على وحدة ما فى الذوق، وترجع إلى تزايد الاتصال بين أجزاء العالم المختلفة فى هذا الزمان الذى نعيش فيه.

والاتجاه إلى المطابقة اتجاه غريزى فى الإنسان الذى يعيش فى مجتمع، فهو يحاول دائما أن يراعى المقاييس الاجتماعية، فى نفس الوقت الذى يسعى فيه إلى إرضاء فرديته، وكما يميل المرء إلى المطابقة فى ملبسه ومأكله وطريقة معيشته بصفة عامة يسعى إلى المطابقة فى لغته. وقد قررنا من قبل أنه يلجأ فى تكوين كلامه إلى الصوغ القياسى الذى يراعى فيه طريقة تكوين المفردات والجمل المستعملة حوله فى بيئته اللغوية. يفعل ذلك دون وعى منه بما يفعل حين يتكلم لهجته الخاصة، وتفعله المجتمعات بوعى حين تنشىء لأنفسها لغات مشتركة، يلتقى فيها أبناء اللهجات المختلفة التى تتضوى تحت لغة واحدة. ومن أمثلة هذه اللغات المشتركة الانجليزية الأساسية Basic English، التى قصد بها أن تكون لغة عامة فى بريطانيا والكومنولث البريطانى.

والآن نتساءل عن ذلك الفيصل الذى يحتكم المرء إليه فى كلامه، ليحكم بينه وبين المجتمع الذى قد ينظر إلى استعماله باعتباره خطأ فى بعض الأحيان. ومن المؤكد أن هذا الفيصل ليس هو الصوغ القياسى؛ لأن الصوغ القياسى ظاهرة لغوية بالمعنى الأخص، إذ أن المرء يلجأ إلى الطرق المشهورة العرفية فى صياغة الكلام والجمل، فيطابقها فى كلامه، ويقف عند هذا الحد فى مراعاة الصوغ القياسى، أى أنه لم يشمل عنصر الصواب الاجتماعى عندما راعى عنصر الصواب اللغوى. تصوّر أستاذا فى

الجامعة يتكلم لهجة أولاد البلد فى محاضرة يلقيها على طلبته فى المدرّج، ثم انظر فيما إذا كان هذا الاستاذ قد راعى الصوغ القياسى فى كلامه أو لم يراعه. الواضح أن هذا الأستاذ الفاضل قد صاغ كلماته وعباراته وجمله على قياس لهجة أولاد البلد، فلم يخطئ من الناحية اللغوية بهذا المستوى. ولكنه إلى جانب ذلك أخطأ فى ناحية هامة هى إهمال المعايير الاجتماعية التى تفرض عليه ما يسمى المستوى الصوابى أو مقياس الصواب والخطأ فى استعمال اللغة؛ وإن عقوبته المترتبة على هذا الإهمال تتمثل فى ضحك طلبته منه ضحكا يشعره بالخجل الذى لا حد له.

وإن الذى فعله مهذّب «إلا يْزَا» فى قصة بجماليون يوضح لنا أن كل نشاط اجتماعى له مستواه الصوابى الخاص؛ فقد نشأت هذه الفتاة فى طبقة فقيرة، ولكنها كانت جميلة. ورآها أحد أفراد الطبقة العليا، فأعجب بجمالها، ولكنه أسف لتربيتها على مسالك الطبقة الدنيا،ورأى بطموحه أن يقوم بتهذيبها وتعليمها طرق السلوك التى تتبعها الطبقة العليا، فيفعل ما فعله المثال بجماليون، أحد أبطال الميثولوجيا الإغريقية، حين وهبت أفروديت الحياة لأحد تماثيله الذى يمثل امرأة، فتروجها، ولقنها أصول السلوك. وإن تعليمه «إلايزا» لم يكن قاصرا على تلقينها لغة الطبقة العليا، وتنفيرها من لغة أولاد البلد، وإنما تناول كل نواحى النشاط الاجتماعى، كطريقة الملبس والمأكل، ومقابلة الناس واستقبالهم، والتحدث إليهم فى مواضيع دون أخرى، وهلم جرا. وذلك يوضح لنا أن المستوى الصوابى فكرة لاتتصل باللغة فحسب، وإنما تتناول كل ناحية من نواحى النشاط الاجتماعى.

ولا شك أن كل سلوك لغوى لابد أن يراعى فيه عنصران هامان لايستغنى عنهما:

١- عنصر الوضوح الذى يسد الحاجة اللغوية أو المعنى الوظيفى

٢- عنصر المطابقة الذى يسد الحاجة الاجتماعية أو المعنى الاجتماعى

وحاصل جمع مراعاة الحاجتين اللغوية والاجتماعية هو مراعاة المستوى الصوابى الذى نتكلم عنه. فإذا أريد بالنص اللغوى أن يكون نصا أدبيا وجب إذًا أن يراعى فيه إلى جانب العنصرين السابقين عنصر ثالث هو عنصر الجمال، وبه يسد النص الحاجة الجمالية الفنية. وبهذا يتضح الفرق بين منتج الأدب وبين منتج الكلام العادى، وبه يتضح الفرق أيضًا بين الناقد الأدبى والباحث اللغوى؛ إذ يبحث أولهما عن الجمال،

ويبحث ثانيهما عن الصواب. ولهذا كان منهج أولهما ذاتيا، ومنهج ثانيهما موضوعيا، والأول يلاحظ فيسجل انفعاله بالنص، والثانى يلاحظ فيسجل الظاهرة التى يجدها فى هذا النص.

ولكون العرف الاجتماعى أثبت من العرف الفنى، وأكثر منه مقاومة للابتداع، نجد لغة الكلام العادى تفرض على المتكلم قوالب وطوابع تعبيرية خاصة أكثر مما تفرضه اللغة العلمية أو الأدبية. ذلك بأن لغة العلم والفن تترك لمن يستعملها حرية خلق الاصطلاحات والتعبيرات التى تصل به إلى غرضه من الإفهام أو التأثير، ومن هنا اختلف طابع المستوى الصوابى فى لغة الكلام عنه فى لغة العلم والأدب.

«وثمة فرق واضح بين استخدام الفرد للغة فى ظروف عامة مشتركة بين أفراد المجتمع اللغوى وبين استخدام الشاعر أو القصاص أو الخطيب للغة. فحين يجد المتكلم نفسه فى الظروف التى تشمل معه جميع أعضاء المجتمع يوجد معيار يمكن لكل امرئ أن يقيس عليه تعبيراته الفردية. أما بالنسبة للأديب فالأمر مختلف تماما؛ فهو يستخدم اللغة استخدام اختيار وتعمد (ونحن نتكلم فى الفن عن الإلهام وعن الإبداع الفنى الذاتى الذى لا يخلوا أبدًا من عمل تطوعى)، ثم هو من جهة أخرى يستخدم اللغة وله نوايا جمالية. فهو يريد أن يخلق الجمال بالكلمة، كما يخلقه الرسام بالألوان والموسيقى بالنغمات»[1].

وقد سبق أن قلنا إن لغة الكلام تقتضى عنصرى الوضوح والمطابقة، وإن لغة الأدب تقتضيهما ومعهما عنصر الجمال، أما لغة العلم فتقتضيهما ومعهما عنصر الانسجام المنطقى. والسبب الذى دعانا إلى استخدام كلمة «الانسجام المنطقى» دون كلمة «المنطق» ودون كلمة «الصدق» أن الاسنجام المنطقى يجب أن يكون طابع كل عمل علمى، بحيث لا يتناقض جزء من هذا العمل مع جزء آخر منه. فإذا جعلنا المنطق عنصرا من عناصر المستوى الصوابى للغة العلم فقد فرضنا منهجا على منهج، وجعلنا المنطق بقضاياه فيصلا فى قضايا العلم. وإذا جعلنا الصدق عنصرا من عناصر هذا المستوى الصوابى فى لغة العلم كانت دعوانا منافية لطبيعة الأشياء، لأن النظريات العلمية تظهر وتختفى، وتجارب العلم تنجح وتفشل، والقاعدة العلمية يعمل بها اليوم

(1) Charle Bally, Traité de Stylistige Française, p. 19.

وتترك غدا. فلو جعلنا الصدق من عناصر لغة العلم لكان علينا أن ننتظر حتى نصل فى العلم إلى الحقائق المطلقة لا النسبية فى الكون، ولاقتضانا ذلك بحثا أبديا بلا فائدة. أما إذا ادعينا هذا الصدق لما بأيدينا من النتائج العلمية، فلن يكون للعلم تقدم بعد اليوم. لهذا وصفنا المستوى الصوابى للغة العلم بأن من عناصره الانسجام المنطقى لا المنطق ولا الصدق.

وحين نتكلم هنا عن المستوى الصوابى نقصد المستوى الصوابى اللغوى الاجتماعى، فلا نقصد المستوى الصوابى المنطقى الخاص بصدق المحمول على الموضوع، أو الاسم على المسمى، ولا نقصد المستوى الصوابى الخلقى الخاص بمطابقة الخبر للواقع ولا شك أن المنطق يرفض أن يكون عبد المطلب عبدا لعمه المطلب، ويرفض فكرة العبوس فى ابنه العباس، ولكن اللغة تسمح بهما. ويرفض المنطق كذلك القضية القائلة «الشمس طالعَةٌ» إذا قيلت بالليل ولكن اللغة تمنحها الاعتراف. وترفض الأخلاق الكذب الصريح الذى فى قول الشاعر لممدوحه:

ماشئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحـد القهار

ولكن اللغة تحتفى بالبيت، وتستشهد به على ظاهرة بلاغية هى الإغراق فى المبالغة، وربما كان للدين طريقته الخاصة فى الاعتراض على هذا البيت؛ لأن للدين مستوى صوابيا خاصا به كذلك.

وما دام لكل لغة أو لهجة مستواها الصوابى الخاص، فلابد لمن يريد التكلم بلغة أو بلهجة غير لغته أو لهجته أو يتعلم مطابقة جميع عناصر مستواها الصوابى، من أصوات، ومفردات، وصيغ، وطرق تركيب جمل، ونبر، وتنغيم، وإشارات باليدين والوجه أثناء الكلام، وطرق استجابة لما يسمع، وهلم جرا. وإن من يكتفى منا بتعلم مفردات لغة أجنبية ويهمل إتقان أصواتها وتنغيمها وطرقها المختلفة ليبدو فى نظر أصحاب هذه اللغة أشبه ما يكون بالأوربى الذى يفد على بلادنا، ويحاول أن يأكل الملوخية بالشوكة والسكين، انظر كيف يخطئ الصعيدى حين يفد على القاهرة لأول مرة، ويحاول أن يتكلم لهجة القاهرة، وعندنا خبرة بأبناء الدلتا حين يعينون للعمل بالصعيد، ويحاولون أن يتكلموا بلغة البلد الذى عينوا فيه. إنهم قد يحسنون كل شىء فيها إلا ما يبدوا غير مستحق للعناية، وعندما يرتكبون هذا الخطأ البسيط يثيرون

الضحك إلى حد كبير. أذكر من طفولتى أنى شاركت فى الضحك حين حيّانا أحد المدرسين من أبناء الدلتا، وكنا نجلس فى القرية، فقال: «السلام عليكم ياجماعة». وكان الذى أضحكنا هو أنه أردف التحية بالنداء دون مبرر، وذلك مالا نفعله عادة إلا إذا كنا نحيى شخصا غير منتبه، فنقول: السلام عليكم يافلان. ولا شك أن هذه نقطة اجتماعية غير لغوية، ولكنها تدخل فى نطاق المستوى الصوابى.

ويستند المستوى الصوابى لهذا السبب إلى ضغط اجتماعى هائل، لا يتسطيع الفرد أن يخاطر باحتماله. ويتمثل هذا الضغط الاجتماعى فى أمور تتدرج من السهولة إلى الصعوبة، من السخرية الضاحكة، أو عدم استجابة السامع للكلام، إلى أقصى العقوبات الاجتماعية، التى منها الابتعاد عن صحبة من يتعود خرق المستوى الصوابى، إلى عدم الدخول معه فى تعاقد اجتماعى كالزواج وغيره، إلى انعدام إحساس أفراد المجتمع بزمالته لهم من الناحية اللغوية. وتلك أمور تبدو هينة على الورق، ولكن تجربتها لا يمكن أن يساويها إلا احتمال أقسى العقوبات القانونية الرادعة. ومن هنا صح أن نسميها عقوبات اجتماعية.

وتتم القدرة على تمييز المستوى الصوابى المطلوب بواسطة أمور منها الملاحظة، والمشاركة، والتجربة. فقد يستمع المرء إلى كلام الآخرين، فيعرف من ملاحظاته لهذا الكلام أن هؤلاء المتكلمين يراعون فى كلامهم أمورا خاصة لا يحيدون عنها؛ وأن عليه إن إراد الدخول فى زمالتهم اللغوية أو استبقاءها، أن يراعى نفس هذه الأمور. ثم يدخل معهم فى محادثات، ويشاركهم الحديث، فيتعلم بالمشاركة مالم يستطع تعلمه بالملاحظة، وإن أكثر سلوكنا الاجتماعى، سواء أكان لغويا أم غير لغوى، قد استقر فى أعماق جهازنا العصبى عن طريق المشاركة المتكررة؛ ولا يستطيع أحد أن ينكر قيمة التكرار من الناحية التربوية. ثم يخطئ أحيانا فيصادف من هذه التجربة ما يصادفه المخطئ، فتردعه هذه التجربة عن الخطأ مرة أخرى فيما أخطأ فيه، وبهذا يحافظ على المستوى الصوابى فى الاستعمال اللغوى.

لكل لهجة إذًا مستواها الصوابى الخاص، الذى يختلف عن المستوى الصوابى لأية لهجة تنتسب معها إلى نفس اللغة. والمعروف أن كل لهجه تميل فى تمجيد مستواها الصوابى الخاص، والمحافظة عليه، إلى أن تستهجن ما يخالفه من التكلم ببقية

اللهجات. وقد بينت كيف ينظر الصعيدى إلى كلام ابن الدلتا، وكيف ينظر الأخير إلى كلام الأول، بل كيف ينظر القاهرى إلى كلامهما جميعا، فيعتبره ذا دلاله معينة من الناحية الحضارية، أو التحضرية على الأصح. وثمة عوامل معينة تجعل القاهرى بموضع يمكنه من السخرية من اللهجات الريفية. تلك العوامل وثيقة الصلة بوسائل الاتصال التى كنا نتكلم عنها من قبل. فالإذاعة فى برامجها الشعبية تميل إلى استخدام لهجة القاهرة، والصحافة حين تكتب اللغة العامية تكتبها بلهجة القاهرة؛ فلهجة القاهرة إذًا مسلطة على الريفى ليلا ونهارا، حتى تعودها سامعا وإن لم يتعودها متكلما؛ وهى تحمل معها إليه عادات القاهرة، وطريقة المعيشة فى القاهرة، وتفرض عليه احترامها، ولا يسعى هو من ناحية أخرى إلى فرض احترام عاداته أو لهجته على القاهرة. ولهذا تصبح لهجة العاصمة، إذا أتيحت لها ظروف معينة، لغة مشتركة يتكلمها كل أبناء الإقليم، ولا يمنع لهجة القاهرة من أن تصبح كذلك إلا نفوذ العربية الفصحى علينا من نواح كثيرة، قومية وثقافية ودينية.

وأغلب الظن أن اللغة العربية الفصحى التى أصبحت لغة مشتركة للعرب من جميع القبائل كانت لغة الحج والأسواق والمجامع الأخرى: وأن اتصالها بالحج وبمكة هو الذى دعا بعض اللغويين إلى أن يسميها لهجة قريش. والملاحظ أن هذه اللهجة الفصحى تقرب إلى كل لهجة عربية، فتكون أدنى إليها من غيرها من اللهجات، وإنما كانت قريبة منها لأن بعض عناصر تركيبها ملاحظٌ فيها. فالفصحى لكونها لغة العرب جميعا تم نموها فى المجتمع العربى فى عمومه، لا فى قبيلة بعينها، وتقبلت فى نموها عناصر من جميع اللهجات، حتى بدت قريبة إلى كل لهجة وانظر مثلا إلى قول أمرئ القيس.

وإن شـــفائى دمعـــة مهراقـــة فهل عند رسم دراس من معول

وإذ أدخل فى اللهة الفصحى «هراق» إلى جانب «أراق»؛ ومن المؤكد أن ما نجهله من هذه الأمثلة أكثر بكثير مما نعلمه منها.

وإذا كان للهجة مستوى صوابى خاص بها، فلا بد للغة المشتركة من أن يكون لها مستوى صوابى كذلك. ولعل كل ما يفعله طلاب الدراسات اللغوية العربية هو أن

يقضوا زهرة عمرهم فى محاولة استكمال فهم المستوى الصوابى لهذه اللغه. ومن أجل هذا يدرسون اللغة نفسها بكل كتبها الصفراء والبيضاء، ويدرسون إلى جانبها ثقافة العرب، وتاريخهم، وإسلامهم، وفلسفتهم، وطرز بنائهم، وغير ذلك. وتتعاون كل هذه الدراسات فى استكمال فهم المستوى الصوابى بعناصره المختلفة اللغوية والاجتماعية والجمالية التى تتجه إلى دراسة النص العربى.

والذى يوحد المستوى الصوابى، ويحرسه، ويقوم عليه هو المجتمع، أو مجموع أفراده، ومن ثم يصبح كل شخص خاضعا لهذا المستوى الصوابى، ولكنه له فى نفس الوقت أن يبدع فى اللغة، فإذا صادف ما أبدعه قبولا عاما فى المجتمع، كان هذا الفرد إلى جانب كونه خاضعا للمستوى الصوابى خالقا له ومشتركا فى القيام عليه. وبهذا يكون من المحتمل بالنسبة للفردأن يكون مؤثرا أو متأثرا بالنسبة للمستوى الصوابى، بحسب الدور الاجتماعى الذى يقوم به كفرد. وسنرى طائفة من أدوار الفرد الاجتماعية فى الفصل التالى إن شاء الله.

وإن التطور الصوتى والصرفى والنحوى والمعجمى والدلالى فى اللغة ليستتبع تغييرا فى المستوى الصوابى من الناحية التاريخية كذلك؛ فما كان صوابا فى الماضى يصبح خطأ فى الوقت الحاضر، ويصبح خطأ اليوم صواب الغد، إذ رأى المجتمع اللغوى أن يتبناه فى الاستعمال. فإذا أخذنا كلمة السيد مثلا ودرسنا استعمالاتها بحسب المستويات الصوابية المختلفة، وجدنا أن هذه الكلمة لم تكن تستعمل فى الماضى البعيد جدا إلا فى مقابل العبد، ثم تطور استعمالها فأصبحت تستعمل بمعنى صاحب النفوذ والسلطان، ثم تطورت كذلك فأصبحت تستعمل فى الغزل؛ فيقول الشاعر لمحبوبته «ياحبيبى وسيدى»، ثم اختص بها الهاشميون حينا من الدهر بعد ذلك، فاصبح كل من يلقب بالسيد يعتبر هاشميا، وفى أثناء ذلك كان الناس قد تعودوا تسميه أبنائهم بالسيد أو سيد بدون الألف واللام، ثم جاءت الثورة المصرية فى ٢٣ يولية عام ١٩٥٢ وعنيت بإلغاء الفروق بين الناس، فألغت الألقاب، ولقبت الناس جميعا بلقب السيد، فاصبحنا نرى صيغتين متحدتى النطق تدل كل منهما على معنى معين هما:

السيد محمد على

السيد/ محمد على

وتدل الأولى على شخص اسمه السيد واسم أبيه محمد واسم جده على، وتدل الثانية على شخص اسمه محمد واسم أبيه على، وقد وضع أمام اسمه لقب السيد، على الطريقة التى يوضع اللقب بها فى المكاتبات الرسمية، متبوعا بخط مائل.

وعلى ذكر قول الشاعر «ياحبيبى وسيدى» لم يكن من العيب فى الماضى أن يورد الشاعر فى غزله كلاما يشتمل على ضمائر المذكر سواء أكان المراد ذكرًا أم أنثى، ولعل ذلك كان استمرارًا لاتجاهات شاذة ظهرت فى الشعر العربى فى العصر العباسى على ألسنة المُجّان وضحايا الشذوذ الجنسى. ولعل المستوى الصوابى الخلقى الاجتماعى فى ذلك الحين كان لا يستنكر مثل هذا الشعر، بل ربما منحه قدرًا من الاستحسان، وقد جر هذا الاستحسان إلى بقاء هذا الميل بعد انقضاء الظروف التى أدت إليه، لأن الشعراء بعد ذلك العصر كانوا يعجبهم القالب الشعرى العباسى، ويريدون محاكاته من الناحية الشكلية، وكان مما تستتبعه هذه الشكلية الغزل بالمذكر، فبقى فى الشعر المملوكى وما بعده، ولا تزال آثاره باقية فى شعرنا وأغانينا إلى يومنا هذا، ولكنها آثار تتلاشى شيئًا ليحل محلها شكل أدبى يتسم بالصحة النفسية، ويخاطب المحبوبة بضمير المؤنث. ومعنى ذلك أن المستوى الصوابى الاجتماعى قد أخذ فى التغيّر، وأإن جيلنا هذا الذى نعيش فيه يفخر بالبدء فى التخلص من مظاهر التعفن الخلقى الذى شاع فى العصور الماضية.

وكما يصح القول بوجود اللهجات الخاصة المهنية والطائفية يصح القول بأن كل لهجة من هذه اللهجات لها مستواها الصوابى الذى يرضى ببعض المفردات دون بعض، وببعض التعبيرات دون بعض، وببعض الطرق فى التعبير دون بعض. وفى صبح الأعشى حشد من المجلدات التى تصف كيفية مخاطبة الملوك فى الرسائل، وكيفية مخاطبة الوزراء، ومخاطبة القادة أو القضاة أو الولاة بل إن ثمة مخاطبة خاصة لصاحب دمشق، وأخرى لصاحب عمالة الصعيد وهلم جرا. وكل من احتك مثلى بلغة العسكريين ومارسها يذكر تعبيرات مثل «التواجد» ويقصد بها الحضور أو

التجمع، ومثل «وقد تنبه عليه» ويقصد بها وقد أحيط علما بكذا، ومثل «بلغ فرار» والمقصود أن العسكرى قد هرب، ومثل ذلك كثير.

ولوكتبت فى مكتب أية قيادة عسكرية «يجب أن يتجمع الجنود» بدل «يقتضى تواجد جميع العساكر»، أو «وقد أحيط علمًا بضرورة حضوره صباح غد» بدل «وقد تنبه عليه بالتواجد باكر صباحا»، أو «إن العسكرى فلان قد هرب» بدل «إن العسكرى فلان بلغ فرار»، لكنت مخالفًا للمستوى الصوابى للكتابة فى المكاتب العسكرية، ولفكر العسكريون فى إسناد مهمة الكتابة إلى شخص غيرك يجيد طريقتّهم فيها.

المتزمتون من رجال اللغة أكثر خطأ فى فهم المستوى الصوابى المطلوب فى الحياة العامة من الناشئين فى فهم هذه اللغة التى نتكلمها فى الحياة اليومية، والتى تجمع بين الفصيح والعامى فى الجملة الواحدة.

يشير ابن فارس[1] إلى إجماع أهل اللغة ـ إلا من شد منهم ـ أن للغة قياسًا، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، كاشتقاق الجن من الاجتنان، والإنس من الظهور. ثم يقول: «وهذا كلام مبنى على ما تقدم من قولنا فى التوقيت؛ فإن الذى وقفنا على أن الاجتنان التستر هو الذى وقفنا على أن الجن مشتق منه. وليس لنا اليوم أن نخترع، ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياسًا لم يقيسوه؛ لأن فى ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها. ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياسا نقيسه الآن نحن».

ويروى أن الشيخ حمزه فتح الله رحمه الله قدم من رحلة تفتيشيه له فى مدارس الأقاليم، فلما انتهى إلى فناء المحطة، نظر حوله لعله يجد رجلا يحمله على حماره إلى بيته، فبصر برجل يجرْ خلفه حمارًا، فناداه: «أيها المكارىْ!» قال الرحل «نعم» فقال الشيخ حمزة: «إيتنى بأتان جَمَزَى»! فظنْ الرجل أنه يتكلم لغة أجنبية؛ فقرب منه وجعل يستطلع جلية ما يريد، حتى أخذ منه الجهد ولم يحظ منه بطائل. وهنا حلت العقوبة بالشيخ حمزة، إذ تركه صاحب الحمار وذهب لحال سبيله. وهرول الشيخ إلى بيته يقول:

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

---

(١) الصاحبى ص ٣٣.

وكان ألطف ما داعب به الشاعر حافظ ابراهيم صديقه الدكتور محجوب ثابت أن عيره بعدم مراعاة المستوى الصوابى فى مخاطبة الناس. فقال حافظ:

يرغى ويزبد بالقافــات تحسـبها قصف المدافع فى أفق البسـاتين
من كل قاف كـأن الله صورهـا من مارج النار تصوير الشياطين

وإن من أوجع ما يتجه إلى أصحاب الثقافة العربية الخالصة والأزهريين منهم بخاصة أنهم يقلقلون ويمدون ويبالغون فى التفخيم والرقيق؛ وكل واحدة من هذه الغلطات فى الكلام العادى اليومى كسر خطير للمستوى الصوابى الذى أنشأه قوم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق، برغم كون مافى كلام الأولين مراعاة للمستوى الصوابى الفصيح، ولكن كلا من هذين المستويين مستقل عن الآخر تمام الاستقلال.

وإذا كان للإنسان خبرة بعدّة مستويات صوابية، أمكنه أن يحدد المكان أو الطائفة أو الطبقة التى ينتمى إليها المتكلم بمجرد سماعه يتكلم، وإنى مورد هنا طائفة من الأيمان، وطائفة أخرى من التحيات، وسيرى القارئ بنظرة قصيرة أن كل يمين أو تحية منها تشير إلى وضع اجتماعى معين، وإلى مستوى صوابى لطبقة اجتماعية معينة، وإليك الأيمان أولا، وحاول أن تحدد الوضع الاجتماعى لمن يحلف كل يمين منها:

وحياة ربنا ـ وربنا ـ والنبى ـ وحياة شنبك ـ والقرآن الكريم ـ عليه الطلاق ـ أقسم بكل محرجة من أيمان المسلمين ـ وحياة أمك ـ وحياة ما انت ما رضيتش تطاوعنى ـ وتربة أمى ـ وحياة غلاوتك عندى ـ ودراع أبويا ـ وراس أبويا ـ وحياة فلان ـ والله العظيم ـ وحياة دى النعمة ـ وحياة العيش والملح ـ وحياة أبوك اللى ما أحلف به باطل ـ وحياة ولادى ـ وحياة عينى ـ وهلم جرا. اقرأ كل قسم من هذه الأقسام وأسأل نفسك الأسئلة الآتية: من الذى يمكن أن يقسم بهذا القسم؟ أى نوع من الناس هو؟ ما الموقف الذى يمكن أن يتم فيه هذا القسم؟ أى نوع من الناس من يستمع إلى هذا القسم؟ وستخرج من هذه المساءلة باجابات تحدد لك الموقف والمستوى الاجتماعى لهذا القسم. ثم افعل مثل ذلك بالتحيات الآتية.

السلام عليكم ـ ياميت مسا ـ صباح الخير ـ نهاركم سعيد ـ ياميت ورد على عيونك ـ صباح اللبن ـ صباح القشطة ـ تقعدوا بالعافية ـ خليتكم بعافية ١ـ تصبحوا على خير

ـ ألْو ـ باى باى ـ ازى الحال ـ ازى الصحة ـ لعلك بخير ـ ازى المزاج ـ ازى الأنجال ـ فلان بيصبح (والمقصود المتكلم نفسه) ـ ياميت فل ـ سلامات ـ الورد فتح للنبى ـ يا ميت صلا على الزين ـ وهلم جرا.

وبعد فالمستوى الصوابى معيار لغوى يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ فى الاستعمال: وهو كالصوغ القياسى لا يمكن النظر إليه باعتباره فكره يستعين الباحث بواسطتها فى تحديد الصواب والخطأ اللغويين، وإنما هو مقياس اجتماعى يفرضه المجتمع اللغوى على الأفراد، ويرجع الأفراد إليه عند الاحتكام فى الاستعمال. وقد سبق أن أشرنا إلى أن المستوى الصوابى لا يوجد فى اللغة فحسب، وإنما يوجد فى كل شئون الثقافة بالمعنى الأعم، أى بالمعنى الأنتروبولوجى الذى يشمل العادات والتقاليد واللغة والدين والملابس والمساكن والحفلات وغيرها. فلكل واحدة من هذه الظواهر مستواها الصوابى الخاص، ومن ثم لا يمكن أن يقال إن المستوى الصوابى فكرة من منهج اللغة، ولكن يقال إنه مقياس اجتماعى عام يرمقه الفرد بشىء من المهابة والاحترام، ويحرسه المجتمع بأسلحة أقلها النقد الاجتماعى اللاذع.